العدد(1347) السنة السادسة - الاحد (19) تشرين الاول 2008 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

# البيان: التلفزيون أداة إخضاع أكثر فعالية من القنابل الذكية

١٠/١٨

باسل أبو حمدة

صحيح أن الإنسانية لم تصبح أكثر غباء منذ أن صارت رؤية البرامج التلفزيونية جزءاً أساسياً من الحياة اليومية للناس، بيد أنها باتت سهلة الانقياد أكثر من أي وقت مضى، أي أن التحكم بها صار أكثر سهولة. والأسوأ من ذلك يكمن في أن هذا يحدث دون إدراك منها.

«عندما يكتب سيناريو للتلفزيون لا بد من التفكير بأن المستهلك المحتمل هو طفل عمره ٦ سنوات»، على هذا النحو كان يعرض للأمر أحد أهم أساتذة السيمائية من أجل إظهار الطريقة التي تقوم عليها صناعة البرامج التلفزيونية. ربما كان هذا الحكم قاسيا بعض الشيء، لكنه لا ينطوي على أي نوع من المبالغة على الإطلاق من جانب آخر، فإن المفكر المعروف زيغنيو بريجنسكي مستشار رئيس الولايات المتحدة الأسبق جيمي كارتر، قد أعرب عن وجهة نظره في هذا الميدان بعيداً عن أي تحفظات عندما قال: «على ما يبدو أن الوجهة في المجتمع التكنوقراطي ستحددها حصيلة الدعم الفردي غير المنسق لملايين المواطنين الذين سيقعون بسهولة في دائرة تأثير شخصيات جذابة ستستغل بطريقة فعالة أكثر التقنيات تأثيرا للتلاعب بالعواطف والسيطرة على منطق الأشياء».

بكلمات أخرى، فإن المسؤول الحكومي لم يقل شيئا مغايرا كثيرا لما علمنا إياه أستاذ الإعلام الاجتماعي هذا الذي عبر عن المسألة على النحو البسيط التالي: «التلاعب بالناس كما لو كانوا أطفالا أغبياء». يعتبر التلفزيون جزءا أساسيا مما يطلق عليه مفكري القوة الامبريالية العظمى. المنتج العالمي الرئيسي للرسائل التلفزيونية الملغمة. «حرب الجيل الرابع» بمعنى آخر: حرب نفسية. إعلامية، حرب حتى الموت للسيطرة على شعوب بأكملها إن لم نقل للتحكم بسكان الكرة الأرضية قاطبة ليس بأسلحة دمار شامل وإنما بوسائل أكثر دهاء وليست دموية لكن لها وقع أشد في نهاية المطاف.

صحيح أن الإنسانية لم تصبح أكثر غباء منذ أن بدأت تشاهد التلفزيون، لكن لا شك بأنها أصبحت مطواعة وسهلة الانقياد أكثر من أي وقت مضى والأسوأ من ذلك هو أن الأمر يحدث دون أن تدرك ذلك، بحيث لم يعد غريبا سماع أحد المنتجين الذين ينتمون إلى عالم الأجهزة السمعية البصرية وهو يقول إن « الناس تريد زبالة، ولذلك نقدم لهم هذه الزبالة». لكن هذا القول لا يعكس إلا نصف الحقيقة وبشكل مغرض فيه الكثير من التجني إذا نظرنا إلى المسألة من خلال خطوطها العريضة جدا، فإننا نلاحظ وبلا أدنى شك أن الجمهور العالمي العريض يستهلك رسائل سمعية. بصرية ذات مضمون منحط للغاية «زبالة»، لكن هذه النظرة ستكون تبسيطية جدا أو جائرة للغاية إذا ما اكتفينا بالفكرة القائلة إن الجمهور أبله بطبيعته وإنه يبحث عن القاذورات في سبيل المتعة.

ذلك أن الناس، في جميع الأحوال، مجبرون على استهلاك تلك الزبالة في حين أن واقع عدم توفر عرض آخر غير ذلك يؤدي بدوره إلى بروز ثقافة استهلاكية قوامها قذارة إعلامية تنغلق على ذاتها. أي أننا نستهلك ما يقدمونه لنا، وهذا يعني أن جوهر المشكلة لا يكمن في المستهلك بل في المنتج. على كل حال، إذا ألقينا نظرة عامة على الأذواق العامة للناس، فمن الممكن استخلاص نتيجة أولى. بالمناسبة، فإن هذه النتيجة تكون خاطئة إذا تم تحليلها بشكل تفصيلي. مفادها أننا نقف أمام جمهور مستهلك عريض يتصف بأنه «غبي» و«مبتذل» يفضل الغباء التبسيطي على العمق المفاهيمي والجمالي.

لكن إذا كان «الذوق السيئ قد أصبح موضة» كما يقول الموسيقار والمغني الكوبي بابلو ميلانيز، فلا بد من رؤية المشكلة بمجملها، حيث يتبين أن التلفزيون، الرمز الساطع للمجتمعات الاستهلاكية التي أفسحت في المجال أمامها الرأسمالية الصناعية، يعرض بطريقة هزيلة للمنطق السائد الذي يسيطر على المؤسسة الخاصة عموما.

أي أن سكان الكرة الأرضية يتعرضون لعملية تلاعب قذرة، لكن فعالة، تعتمد على تقنيات ذكية، كما يقول التصريح الخشن الذي أطلقه بريجنسكي، مما يمكن أصحابها من الحصول على عناصر القوة والسلطة التي تصمم على أساس مشروع واضح المعالم.

حتى تتضح صورة هذا المشهد القاتم لا بد من العودة إلى ما قاله جوزيف جوبلز، الذي يعد الأب الروحي للتلاعب الإعلامي الحديث، حين قال: «إلى من يجب أن تتوجه الدعاية (بروباغاندا)، إلى المثقفين أم إلى الجماهير الأقل تثقيفا؟ يجب أن تتوجه دوما وبشكل حصري إلى الجماهير.

الدعاية كلها يجب أن تكون شعبية على أن يبقى مستواها عند حدود إمكانات أقصر الطرق للتشبه والتماثل بين أولئك الذين تخاطبهم (أطفال في السادسة من العمر). ذلك أن إمكانية تماثل الجمهور ضيقة جدا وفهمه محدود، لكن ضعف الذاكرة لديه كبير جداً. وبالتالي فإن أي دعاية فعالة يجب أن تقتصر على عدد ضئيل من النقاط القوية وفرضها بقوة على شكل صيغ مكررة طوال الوقت اللازم الكفيل بجعل المتلقي الأخير قادرا على التقاط الفكرة أيضا».

ليس هناك أي شك في أن الطابع المباشر للرسائل السمعية . البصرية، التي يعد التلفزيون ممثلها الرئيسي وذلك أكثر من السينما والصورة والانترنت وألعاب الفيديو، وأحادية وجهتها قد ولد ثقافة الصورة التي يبدو من الصعب إن لم يكن من المستحيل تنحيتها جانبا أو العودة عنها في يومنا هذا. الأمر الذي يفتح الباب واسعا أما السؤال التالي: هل التلفزيون هو آلة لصنع الغباء فقط «وبالتالي جمهورا غبيا يستهلكه» أم أنه يمكن أن يكون نافعا في أمر آخر؟

هل سيكون هناك إمكانية لتخطي تلك الثقافة السطحية، ذلك «الذوق السيئ» الدارج في جميع أنحاء العالم؟ والأدهى من ذلك، هل ستتمكن ثقافة الصورة والاستكانة من لعب دور البديل أمام غزو ذلك النوع من الرسائل الذي يحكم علينا بالنظر بعيدا عن التفكير؟

ليس جديدا أن التلفزيون قد اتخذ لنفسه، خلال هذه العقود الزمنية القليلة الماضية، قالبا يبدو أنه نهائي إلى حد كبير. قالب الغباء الأكثر ابتذالا، الأكثر سطحية. وإذا كان ظهوره قد أوجد آفاقا كبيرة من خلال الإمكانيات التي بدا أنه كان في طريقه إلى فتحها كوسيلة معلوماتية وتعليمية عالمية شاملة، فإن الآفاق ذاتها سرعان ما خبت محولة كل الجهد تقريبا الذي أعطاها كل هذا الزخم إلى العمل في خدمة تسلية عابرة.

صحيح أن التسلية أمر ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه في حياة الناس وأنه لا توجد حضارة إنسانية إلا وتفننت في الترويح عن النفس، عروض السيرك، الرياضات، الأنشطة الترفيهية على سبيل المثال لا الحصر، بيد أن ثقافة الصورة التي أفضت إلى ظهور التلفزيون جلبت معها الإعلاء من شأن السطحية المبتذلة التي سرعان ما تحولت بدورها إلى آلة حقيقية متخصصة في صناعة الأغبياء. أغبياء على قدر العناصر التي تصممها عوامل القوة بالطبع.

إن إمكانيات توليد بيئة تعليمية وتثقيفية ومعلوماتية ذات مستوى رفيع بقيت متخلفة جدا بالنسبة لمسألة تمضية الوقت الرخيصة. ذلك أن التلفزيون، في ظل عدة عقود تاريخية متراكمة، يميل بشكل أساسي، في يومنا هذا، إلى مواصلة كونه أداة التسلية البسيطة تلك بعد أن أراح نفسه بالكامل تقريبا من إمكانيات أخرى كان من الممكن أن تلعب دورا بناء في حياة الناس.

صحيح أن الشاشة الصغيرة تعلم المشاهدين بشيء ما. حالها في ذلك حال جزء لا بأس به من الصحافة عموما. لكنها تفعل ذلك مع إضافة خليط من الأشياء المختلفة التي تعكس الجوهر السمعي. البصري الذي يمنحها سلطة ورفعة يصعب على وسائل إعلام أخرى بلوغهما، بحيث بات من الممكن القول إن الواقع المرئي للتلفزيون هو الواقع نفسه، في حين تحولت أخبار التلفزيون إلى كونها « الواقع نفسه».

كما أن البرامج التعليمية. التثقيفية باتت شحيحة إلى حد كبير بالمقارنة مع البرامج الترفيهية التافهة الغبية الفارغة من أي مضمون، بينما أدى الضغط التلفزيوني المتكرر، الذي يعتمد التكرار، إلى ظهور عادات معينة من السهل السيطرة عليها، ولم يخطئ وزير الدعاية في الرايخ الثالث حين قال: «بعض النقاط القوية تفرض نفسها بقوة الصيغ المكررة».

وثقافة الصورة التي تجترع نفسها منذ سنوات خلقت عادات لدى كافة الطبقات الاجتماعية التي تنتمي إلى الأجيال الأخيرة ويبدو انه أصبح من المستحيل تفكيكها في يومنا هذا. لكن تلك الثقافة تنطوي على حد يتمتع بطابع جوهري، ربما بات من المستحيل التحرر منه ويتلخص في أنه ليس مهما نوع البرنامج التلفزيوني الذي يعرض، فالنظر إلى الشاشة دائما لا يسمح بموقف نقدي على غرار ما تفعله القراءة على سبيل المثال. من جانب آخر، فإن التلفزيون يعد سلاحا للسيطرة أشد فتكا من الأسلحة النارية ومؤسسات السلطة لن تتوقف عن استخدام هذا السلاح فحسب، بل ستسعى على توسيع رقعة توظيفه. ذلك أنه أداة إخضاع فعالة أكثر بكثير من السيف القديم أو القنابل الذكية الحالية. ولهذين السببين بالذات، أي التجارة الأخرافية وآلية السيطرة الاجتماعية، يمكن القول إن التلفزيون هو جزء أساسي من النظام الرأسمالي.

لكن يضاف إلى ذلك عامل آخر وهو أن ثقافة الصورة تفتن وتسحر وتغوي وتأسر بطريقة تجعل من الصعب جداً إنتاج مقترحات بديلة ذات وقع حقيقي على الناس، أي أن الذوق العام لا يزال يميل الى جانب الغباء، الذي أصبحت فيه التسلية مرادفا للسخرية، ما يجعلنا نغامر في القول إن التلفزيون أصبح مرادفا للذوق السيئ.

مع الأخذ في الاعتبار أن الجمهور ليس هو الجهة التي تنتج البرامج التلفزيونية وبالتالي فإن الأمر لا يتعلق بنوع من الغباء المتأصل عنده وإنما بنوايا ربحية وسياسية مغرضة لا يأبه أصحابها بالحال التي آل إليها تفكير الناس فحسب، لا بل إنهم يدفعونهم دفعا إلى الوقوع في شرك التفكير السطحي.

لكن كيف نصنع تلفزيونا مغايرا؟ وهل هذا ممكن أصلاً؟ نعتقد أن ذلك ممكن، لكن في ظل ظروف معينة، فضلا عن أنه توجد في يومنا هذا برامج تثقيفية حقا ذات مستوى رفيع تروج للفكر الناقد والذوق الطيب. صحيح أن تلك البرامج لا تعدو كونها جزرا مبعثرة هنا وهناك، لكنها موجودة فعلا.

وذلك يبين أمرا على قدر كبير من الأهمية وهو أن البرمجة بالجملة على مدار اليوم وكل يوم من أيام السنة تجعل من الصعب الاعتماد على برامج نوعية بمجملها. هذه هي الصور ليس لأن الجمهور غبيا، بل لأنه من الصعب تقنيا الوصول إلى ٢٤ ساعة في اليوم للانكباب على التأمل.

ذلك أن تمضية الوقت أمر ضروري أيضا. المسألة تتعلق بالسعي إلى توفير حالة من التوازن بين كلا الأمرين، بين التأمل واللهو، لكن بما أن مؤسسة التلفزيون في الوقت الحالي قائمة على التجارة وسلاح السيطرة الأيديولوجية، فإنه ستبقى دائما بين أيدي القوى المحافظة، ومن المحتمل أن تقدم تفاهات أكثر من أن تشق طريقها نحو آفاق النقد الذاتي.

إن المقترحات البديلة من أجل تلفزيون جديد والمشاريع التي ولدت من رحم القوى التقدمية والمتنورة حول العالم والمبادرات التي تحاول ألا تكون مجرد وسيلة تجارية فقط وقعت بدورها وإلى حد كبير بين براثن الهجائية والعقائدية الأيديولوجية، الأمر الذي ادخلها إلى قلب الجدل الدائر حول ضرورة توفير البدائل المناسبة عن الواقع الحالي المزري لمؤسسة التلفزيون حول العالم.

إن ثقافة الصورة لا يبدو أنها ستختفي أو تضمحل بسهولة وذلك لأسباب عديدة تتعلق بطبيعة المجتمع الرأسمالي الذي يشكل التلفزيون فيه ممثلاً سهلاً للحصول على أرباح هائلة وأداة ناجعة للاستمرار في تشجيع حمى الاستهلاك التي يحتاجها النظام، حيث تحرك تجارة التلفزيون ثروات ضخمة وليس هناك أي من الشركات الكبرى التي تديره مستعدة لخسارتها.

من الواضح أن المشروع الذي تدور حوله اللعبة برمتها هو إبقاء الجمهور العريض مسالما لا يحرك ساكنا وفي موقع المستهلك الأبله. أما رسائل الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم الـ ٦ سنوات والمؤثرات العاطفية والنفسية على شتى أنواعها، فهي الأداة التي ابتكرت خصيصاً لهذا الغرض. وليس هناك من وسيلة إعلامية أظهرت كفاءة في استغلال تلك المؤثرات أكثر من التلفزيون.

# المستقبل: غضب الكوريين الجنوبيين على المسيحيين

AL-MUSTAQBAL

١٠/١٨

شوسانغ ـ هون

في معبد جوغيى، وهو في العادة مثال على الهدوء والسلام البوذي، وقف رجال بوليس ينتظرون عند الباب للقبض على كل من يخرج. أما خارج المعبد، وخارج صفوف رجال البوليس، فيجتمع جمهور بينه قادة حركة احتجاجية ضد الحكومة، وهؤلاء متهمون بدورهم بأنهم يثيرون العنف. لقد أتوا الى المعبد لأنه مركز للحركة السياسية، وليس مكاناً للعبادة التأملية. وكان موظف حكومي كبير قد سمّى المحتجّين: الشياطين! وفي المعبد وخارجه يافطات تنتشر بجانب المصابيح الـ١٦٠٠، وكلها كتبت عليها: أخرج! والمقصود بذلك الرئيس لي ميونغ باك. وهذه كلها مظاهر ما عرفتها الديانة البوذية المسالمة من قبل. أما بارك جيونغ كيو .المسؤول عن فرقة جوغيى، الفرقة البوذية الرئيسية في البلاد .فيقول: «الذين يهددون السلام الديني في البلاد هم الذين يحلمون في تحويل الدولة الى مملكة صليبية من القرون الوسطى، مملكة بروتستانتية، بزعامة القسّيس/ الرئيس»! والرئيس لي، هو شيخ من شيوخ الكنيسة البرسبتارية البروتستانتية. ومنذ انتخابه في كانون الأول من العام الماضي، يتذمر البوذيون من تنامي قوة وانتشار الإنجيليين في البلاد. وقد دعمت الكنيسة البرستبارية انتخاب لي. لكن الذي يثير غضب الناس .وليس البوذيين المتدينين فقط .هو أن البروتستانت مصرّون على التبشير بدينهم، وإهمال العلاقات بالديانات الأخرى.في شهر آب الماضي، خرج عشرات الألوف من الكوريين المتديّنين والعلمانيين، الى وسط سيئول، محتجّين، ومتهمين الرئيس أنه يمارس سياسات تمييزية، ويقدّم البروتستانت على البوذيين. وهذا الاحتجاج .وهو الأول من نوعه. يشير الى صعود وعي ديني/ سياسي لدى الكوريين الجنوبيين، كما أنه يُهدّد بالانقسام الديني، وهو أمر ما عرفته كوريا الجنوبية في تاريخها الحديث. ويقول البروفسور سونغ رايونغ، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة: إن ما نشهده من احتجاجات بشعارات دينية جديدة. فعلى الرغم من الحروب والنزاعات الكثيرة التي حدثت بكوريا ومحيطها من قبل؛ فإن السلام الديني كان مستتباً، وهو ما لم يعد موجوداً الآن. وتحت الأضواء يقع الرئيس لي، الذي سبق أن قال عندما كان رئيساً لبلدية سيئول إنه يأمل أن تنحاز العاصمة الى الإله المسيحي. ويمنع الدستور فرض أي دين باعتباره دين الدولة. كما أن نحو نصف السكان البالغ عددهم ٤٧ مليوناً، لا ينتسب الى أي دين. وقد سبق للمتديّنين (١٠ ملايين بوذي، و٨،٥ ملايين بروتستانتي، و٥ ملايين كاثوليكي) أن عاشوا معاً بسلام وطمأنينة، حتى داخل الأسرة الواحدة.

والرئيس لي ليس أول مسيحي يُنتخب للرئاسة. فإثنان من أسلافه الثلاثة كانوا مسيحيين ملتزمين. بيد ان التوتر اندلع بعد انتخاب لي في شهر شباط الماضي. ويشكو البوذيون من انه بين الـ١٦ وزيراً في الحكومة، فان ١٣ منهم من المسيحيين. أما الاثنان الباقيان فلا يمارسانه في اي دين. وكان وزير النقل البري والبحري قد نشر خريطة في شهر تموز الماضي لمدينة سيئول لا يبدو خلالها اي معبد بوذي، بينما تنتشر وتسجل الكنائس كلها حتى للفرق المسيحية الصغيرة في كل زاوية من زواياها. وفي شهر آب الماضي دعي وزير كوري مسيحي ليقود الصلاة في البيت الابيض. وقد انتهز البوذيون هذه الفرصة وفرصاً مشابهة، لاتهام لي وأصحابه بأنهم يحولون الحكومة الى تنظيم تبشيري. وقد اعتذرت الحكومة للاخطاء غير المتعمدة مثل الخريطة، وأسفت لسوء الفهم من جانب الرهبان البوذيين لبعض التصرفات. وفي مقابلة طويلة لشهر ايلول اعترف ٢٦ راهبا من كبار البوذيين بأن مقاصد لي طيبة ومسالمة. وقد ساعد ذلك على تخفيف التوتر. لكن الرهبان انفسهم اصروا على الاستمرار في الاعداد لتظاهرة كبيرة في احدى المدن للاحتجاج على حكومة لي، وقد طالب هؤلاء رئيس الجمهورية بأن يعفي قائد البوليس وهو بروتستانتي ايضاً، وأن يصدر قانوناً بمعاقبة المسؤولين الحكوميين الذين يظهرون عصبية دينية.

وأخيراً فقد طالبوه بعدم سجن المحاضرين من الرهبان والناس بمعبد جوغيى.

يبلغ عمر البوذية بكوريا ١٦٠٠ عام. لكنها فقدت نفوذها في البداية لصالح الكاثوليك، والآن لصالح البروتستانت، قد وصلت البروتستانتية الى البلاد قبل قرن فقط، لكنها انتشرت بسرعة في العقود الأخيرة، مع تقدم الحداثة بالبلاد! فقد جاء المبشرون البروتستانت معهم بالطب الحديث الغربي، والتربية الغربية الحديثة. كما ان المسيحيين الكوريين خاضوا النضال من اجل الديموقراطية في حقب السيطرة العسكرية. وعلى العكس من ذلك فان البوذية ذات الطابع التأملي، والتي يهجر من اجلها الناس المدن الى المعابد والصوامع بالجبال، بدت رجعية ومنعزلة ولا تهتم بالمشكلات والحياة العصرية. وقد ذهب كوريون كثيرون الى انها ليست اكثرية موروث ثقافي من دون ان تكون ديناً. ويقول الاستاذ باي بيونغ تاي، السكرتير العام لمعهد دراسات الحرية الدينية ان البوذيين اهملوا الاهتمام بالمسألة الاجتماعية. لكن البروتستانت الذين نمت اعدادهم بسرعة، تمددوا في الحياة الاقتصادية والدينية بالبلاد في عصر العسكريين. وقد اعتمدوا ايضا وسائل تسلطية في التبشير. فهم لا يحترمون الديانات الأخرى! وما يزال البوذيون يأخذون على سينغمان ري، وهو رئيس وديكتاتور وبروتستانتي، انه اعتبر عيد الميلاد عيداً وطنياً عام ١٩٤٨، اي قبل ٢٧ عاماً من اعتبار يوم مولد بوذا كذلك. وكان الأصوليون المسيحيون قد خربوا بعض تماثيل وانغون، الأب الأسطوري للبلاد، فاثاروا ايضاً اضطراباً. وفي عهد الرئيسين السابقين على لي، تحول البروتستانت المحافظون الى طرف المعارضة الرئيسي في البلاد. لكنهم تجمعوا من حول لي في انتخابات كانون الأول. والان يقبع لي على رأس السلطة، ولذلك تصاعدت مشاعر السخط.

# النهار: الأيام الإسرائيلية الأخطر من عهد بوش

١٠/١٨

سليم نصار

كادت طائرة مجرية ضلت طريقها قبل اسبوعين، تتسبب في صدام مسلح بين الحرس الثوري الايراني والبحرية الاميركية المرابطة في شط العرب. ولولا تجاوب قائد الطائرة مع طلب الهبوط، لكانت الصواريخ الايرانية قد أسقطتها مع المساعدات التي تنقلها الى افغانستان.

وربما ساهم في تهدئة حال الاستنفار والتوتر، البيان الذي بثه البنتاغون على عجل، وفيه يؤكد عدم انتهاك أجواء ايران من قبل الطيران الحربي الاميركي. وللتدليل على تزايد مخاوف ايران خلال هذه المرحلة الحساسة، نشر قائد سلاح البحرية عوامات تتحرك الكترونياً، بهدف مراقبة الشواطئ ورصد كل حركة مشبوهة قد تقوم بها البوارج الاميركية. وترى حكومة طهران أن تهديدات اسرائيل تفرض عليها اتخاذ الحيطة والحذر خشية حدوث مفاجأة عسكرية تؤخر برنامج تخصيب الاورانيوم حتى العشرين من كانون الثاني كمرحلة بالغة الخطورة لأن نتائج الانتخابات تكون قد أعفت الرئيس جورج بوش من قيود الالتزامات نحو مرشحه المفضل ماكين. ومعنى هذا أن احتمال موافقته على قصف منشآت نووية ايرانية سيظل قائماً بسبب احتفاظه بصلاحيات الرئاسة. وقد يصادق الرئيس على هجوم اسرائيلي مثلما وافق على قصف «المفاعل المشبوه» في سوريا بحيث يحرج خلفه الرئيس الديموقراطي باراك أوباما. أما اذا فاز جون ماكين الجمهوري، فإن هذا القرار يكون منسجماً مع مواقفه السياسية ودعوته الى معاقبة ايران.

مجلة «تايم» الاميركية ادعت منذ فترة، ان رئيس «الموساد» قدم اقتراحاً يقضي بضرورة قصف المفاعلات النووية الايرانية عقب انتهاء الانتخابات، وقبل أن يقسم الرئيس الجديد يمين الولاء. ولكن التصاريح التي صدرت عن رئيس الوزراء الاسرائيلي المستقيل ايهود اولمرت لا تشير الى تأييد واشنطن مثل هذا الاجراء. فقد ودعته ادارة بوش بإعلان تحفظها عن أي هجوم ضد ايران .

رئيس اسرائيل ومؤسس برنامجها النووي شمعون بيريس، حذر من مضاعفات ضرب المنشآت النووية الايرانية لإيمانه بأن هذه المغامرة العسكرية ستؤدي الى تفجير أزمة في المنطقة يصعب ضبط تفاعلاتها. ويرى بيريس أنه من الحكمة إنشاء تحالف دولي واسع يمارس ضغطاً مضاعفاً على الرئيس احمدي نجاد يمنعه من استكمال تطوير اسلحة نووية. وقال إن ايران ليست عدواً لبلاده، وانما العداء ينحصر في تصاريح الرئيس نجاد المطالب بإزالة اسرائيل من الوجود.

اضافة الى انتقاداته المتواصلة وتهديده بمحو دولة اليهود من الوجود، هاجم الرئيس نجاد هذا الاسبوع الدول الغربية لأن الازمة المالية في رأيه، تعود الى انعدام الايمان بالله. وقال في خطاب نقلته وسائل الاعلام، ان الازمة المالية ستضع حداً لسيطرة اللصوص الدوليين على العالم. ووعد بانتصار العدالة بفضل مقاومة الشعب الايراني الذي يحمل لواء الإمام المهدي.

وجاءت تصريحات نجاد في وقت يواجه الاقتصاد الايراني متاعب كبيرة بسبب الزيادة القياسية في الاسعار والتضخم وارتفاع نسبة البطالة. وكان مسؤولون قد حذروا من تعمق الازمة هذه السنة بعد توقعات بضعف الاستهلاك العالمي للنفط وانخفاض أسعاره.

يقول المراقبون في طهران ان الادانات والحملات ضد الرئيس نجاد، اتسعت بحيث شملت كبار رجال الدين من أمثال الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني ومفاوض الملف النووي السابق حسن روحاني، وتيارات طالبية على غرار «جمعية الطلاب الاسلامية». وتركزت الحملات على ادانة سياسته الاقتصادية.

يسعى الرئيس نجاد الى أن يتخطى ظروف الازمة الاقتصادية، عبر اجراءات صارمة تبدأ بخفض حصص البنزين للسيارات الخاصة تدريجاً اعتباراً من آذار المقبل... وتنتهي بتحسين محطات التكرير. والمعروف ان ايران – رابع اكبر دولة مصدرة للنفط في العالم – لا تملك محطات تكرير كافية لتلبية حاجات المستهلك المحلي. وعليه، قررت الحكومة انهاء فترة الدعم على الوقود بحلول ٢٠١١ لعل هذا الحل يخفف من وطأة المعاناة الاقتصادية الناتجة عن الحصار وسياسة العقوبات. خصوصاً ان الولايات المتحدة والدول الاوروبية تتجه حالياً الى فرض عقوبات جديدة تستهدف قطاعات الطاقة والمال، في حال باشرت محطة «بوشهر» النووية عملها مطلع السنة المقبلة.

واللافت ان دينيس روس، مستشار شؤون الشرق الاوسط للمرشح الديموقراطي باراك أوباما، كان قد حذر من تساهل الاوروبيين لاعتقاده أن احتمالات الحرب ستزداد ما لم تتضاعف العقوبات ضد ايران. ودعا في تقرير قدمه الى أوباما الى اتخاذ خطوات عسكرية فورية للتعامل مع طهران، كنشر حاملات طائرات وكاسحات ألغام في منطقة الخليج. ومثل هذه النصائح لا تبشر بأفق مريح ما دام روس – الذي خرّب مشروع السلام في عهد كلينتون – سيظل هو المستشار الخاص لأوباما مع وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت.

في هذا السياق كتبت صحيفة «فايننشال تايمز» تقول ان الولايات المتحدة وحليفاتها تدرس إمكان فرض عقوبات اقتصادية جديدة على ايران تستهدف قطاعات الطاقة والمال من دون دعم الامم المتحدة. وترمي هذه المحاولة الى تشكيل تحالف ضد ايران خارج نطاق الامم المتحدة بحيث تتجنب اعتراض روسيا والصين. كما ترمي ايضاً من وراء هذه الخطوة الى محاصرة صادراتها النفطية والقطاع المصرفي. وتحاشياً لنتائج هذه العملية، قررت طهران ودمشق اطلاق مشروع مشترك لتمويل علاقات الأعمال التجارية المتزايدة، وتخفيف أثر الاجراءات الصارمة. ومن المتوقع الاعلان قريباً عن تأسيس مصرف سوري – ايراني مشترك في دمشق تكون نواته: المصرف التجاري السوري ومصرف «صادرات» الايراني. والغاية هي امتصاص الضغط الخارجي واستثمار الازمة المالية العالمية من اجل بناء حصانات اقليمية مستقلة.

ومثلما تحفّظ شمعون بيريس عن قرار استخدام القوة العسكرية لمنع ايران من الحصول على سلاح نووي، كذلك فعل هنري كيسينجر الذي دعا الى تنشيط الحوار الديبلوماسي مع طهران. ويبدو ان تصريح وزير خارجية فرنسا برنارد كوشنير قد اثار من جديد موجة من الاستياء في طهران لكونه اوحى بأن اسرائيل تستعد لعمل عسكري. وكان الوزير الفرنسي قد اعرب عن قلقه بعد زيارة تل ابيب من احتمال توجيه ضربة عسكرية لايران على أمل ثنيها عن مواصلة برنامجها النووي. وعارض رئيس الموساد السابق افراييم هاليفي هذا التوجه، معتبراً ان الهجوم العسكري على ايران سيؤدي الى نتائج كارثية على الدولة العبرية ولمدة مئة سنة. وانتقد هاليفي بشدة موقف اسرائيل لأنها تتوقع من طموحات ايران السياسية والاقتصادية ازالة الدولة اليهودية. ورأى ان النظام في طهران يسعى الى تحويل ايران دولة عظمى في المنطقة تستطيع فرض سيطرتها. وليست القنبلة النووية في نظرها سوى رافعة عسكرية لتحقيق اهداف سياسية.

وأيد نائب وزير الأمن السابق افراييم سنيه هذه المخاوف لأن نتائج الهجوم العسكرية ستكون مدمرة بالنسبة الى اسرائيل. ولكنه من جهة اخرى، رأى ان بلاده لا تستطيع العيش باستقرار وهدوء اذا اصرت القيادة الايرانية على تهديدها بالزوال في الصباح والمساء. وكرر قول زعيمة «كاديما» تسيبي ليفني بأن اسرائيل تستطيع مواصلة تفوّقها العسكري، لا فرق اذا حصلت ايران على القنبلة النووية ام لا. ووفق تصوره فإن الهجوم العسكري الاميركي – الاسرائيلي المشترك، سيؤخر عمل ايران سنة او سنتين، قبل ان تعود الى نتائج القنبلة.

من اجل ترطيب الاجواء المتشنجة، أعلنت موسكو انها لن تصدر انظمة صاروخية متطورة الى دول تقع في مناطق مضطربة. وشكّل هذا الموقف خطوة مفاجئة جاءت عقب زيارة رئيس الوزراء الاسرائيلي المستقيل ايهود أولمرت الى موسكو. وكان واضحاً أن موسكو تدعو الى تسوية الأزمات الاقليمية سياسياً، وأن حرصها على ابقاء التوازن قائماً، يدفعها الى عدم تزويد سوريا وايران بأنظمة صاروخية بالغة التطور. وهي بالطبع تعني الصواريخ من طراز «اس – ٣٠٠» التي تتمكن من اصابة طائرات تحلق على ارتفاع ثلاثين كيلومتراً. اما منظومة الرادار التي تقوم بتوجيه الصواريخ فإنها قادرة على رصد اهداف عدة واطلاق الصواريخ في اتجاهها.

مقابل الاستعدادات الايرانية، قامت الادارة الاميركية بتزويد اسرائيل بـ٢٥ طائرة من طراز «اف – ٣٥» الأكثر تطوراً بين المقاتلات. كما اهدتها راداراً متطوراً يعمل من طريق القمر الاصطناعي ثبتته في صحراء النقب، اضافة الى هذا، فقد زودت ترسانتها بألف قنبلة ذكية. وترى صحيفة «هآرتس» ان الادارة الاميركية رفضت طلباً اسرائيلياً للحصول على اسلحة هجومية، والاذن بالعبور في أجواء العراق، ولكنها وافقت على ان تنصب في النقب رادار الانذار المبكر، كوسيلة من وسائل تعزيز القدرة الدفاعية ضد صواريخ ارض – أرض الايرانية. وللمرة الاولى منذ قيام اسرائيل سيكون على أرضها حضور عسكري دائم للولايات المتحدة. وربما اعتبرت واشنطن هذا الاجراء الوقائي تعويضاً عن قرار منع مهاجمة المنشآت النووية الايرانية.

في مقاله الاحد الماضي كتب وزير الخارجية البريطاني السابق ديفيد أوين في صحيفة «صانداي تايمز» يقول ان هناك مؤشرات سياسية تنبىء بأن اسرائيل تستعد لتوجيه ضربة عسكرية الى ايران. وتمنى على الرئيس بوش ان يعلن تحذيره على الملأ، لأن المراقبين يعتبرونه متواطئاً من طريق صمته المريب. وبينهم من يفسر استقالة أولمرت المفاجئة وغياب اجتماعات مجلس الوزراء بأنهما يمثلان غطاء التمويه لقرارات اتخذت في الغرف المغلقة.

بقي ان ننتظر الفترة الحرجة ما بين الخامس من تشرين الثاني والعشرين من كانون الثاني، كي نكتشف الموقف الحقيقي للرئيس الأميركي المغادر!